حاجة الإنسان إلى العقيدة

بقلم الدكتور/ أحمد عبدالرحيم السايح

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الاعتقاد شيء مركوز في النفس ، مستقر في قلب الانسان ، لايستطيع إنسان أن ينكره .. فالنفس أو الفطرة خلقها الله تعالى ، وأودع فيها هذا الاتجاه ، الى الخالق .. وان الانسان مهما ابتعد عن منهج الله ، فلن يستطيع أن يغير فطرته .

قال تعالى : « **فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله** »[١] .

وقال تعالى : « **ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها** »[٢] .

فعاطفة الاعتقاد أمر فطري ومشترك بين الناس عامة في كل عصر ومكان ، فإنه لم تخل جماعة من الناس في أي زمان ، من عقيدة دينية ، على نحو ما . وإذا كان الدين والاعتقاد ، أمرا غريزيا وفطريا في الانسان ، في كل زمان . فإن الاسلام هو الدين الذي رضيه الله تعالى للناس جميعا [٣] .

فالانسان لا غنى له عن الدين ، لأنه يحس في نفسه شعورا ووجدانا ويشير إلى هذا الشعور والوجدان . ما رواه أبوهريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة »[٤] . وقول الله عز وجل : « **وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون** »[٥] .

ففي هذه الآية يبين الله تعالى ، أنه أخرج من صلب آدم وبنيه ذريتهم نسلا بعد نسل ، على هيئة ذر . وذلك قبل خلقهم في الدنيا ، وأشهدهم على أنفسهم . قائلا لهم : « ألست بربكم » ؟ فأجابوا : « بلى شهدنا » بذلك . فالله سبحانه وتعالى أشهدهم على ربوبيته حتى لا يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا التوحيد غافلين ، أو غير عالمين[٦] . فطبيعة الانسان فيها استعداد فطري لمعرفة الله . وهذه الفطرة مستأصلة في الانسان ، وموجودة منذ الأزل في أعماق روحه[٧] .

ومن هنا كان الاعتقاد أمر لابد منه ، وان الدين الحق رحمة للناس جميعا على اختلاف عقولهم ، وقدرتهم على التفكير ، وانه هدى ونور ، وان العلم لا يغني عنه شيئا[٨] .

فالاعتقاد أو الدين عنصر ضروري . والانسانية بحاجة إليه للكمال النفسي والروحي . فالانسان جسم وروح . والجسم يتغذى بالطعام والشراب بينما تتغذى الروح بالايمان والعقيدة . وعلى ذلك فالاسلام منهج شامل لأمور الدنيا والآخرة ، محقق لمصالح الفرد والجماعة ، قوامه الشريعة والعقيدة والأخلاق . فليس دينا فقط ، ولكنه دين ونظام حياة ، لا تنفصل فيه العلاقة بين الله والانسان ، عن الصلة بين الانسان والانسان ، وهو ينظمهما جميعا »[٩] .

فالدين الاسلامي عقيدة شاملة ، لتنظيم الحياة وتفسيرها ، واستجابة لحاجات النفس الانسانية ، ومشعل يضيء الطريق امام الناس ، ويبلغ بهم غايات السعادة والاستقرار ، ووسيلة لتقدم العلاقات العامة والخاصة .[١٠] هذه العقيدة التي جاء بها الاسلام هي أعطف شيء على الانسان في مصائبه ، وأحنى أس عليه في نوازله . يعتصم بها في مخاوفه ، ويلتجيء إليها في أموره ، ويستسهل بها صعوبات الحياة ، ويموت بها مرتاحا ، قرير العين ، لتيقنه أن يدا تنتظره ، إلى عالم أرقى ، وقدرة تحف به ، تحفظه من عاديات الفناء ، وجائحات العدم[١١] .

تأمل في أمر هذه العقيدة التي تمس أخص حياة الانسان ، وتدبر بإمعان في شعوبها وفنونها السارية في سائر عواطف النفس .. تأمل وتدبر . ترى قوى النظر والشم واللمس والذوق والحس ، مستخدمة ومسخرة لهذه العقيدة . وما مناظر هذا الجمال التكويني إلا مثيرات لهذه العقيدة ، موقظات لزيادة الشعور بها .

ومن أبرز الخصائص التي تختص بها العقيدة الاسلامية :
- انها تربط الانسان بالله ، وبقوى الكون الظاهرة والخافية .
- انها تبث الثقة والطمأنينة في الانسان ، وتمنحه القوة لمواجهة القوى الالحادية ، والأوضاع الباطلة .
- انها توضح للانسان غايته واتجاهه وطريقه .
- إنها تجمع للانسان طاقاته وقواه ، وتدفعها في تجاه الغاية .
- إنها تقدم للانسان الحل لمشكلاته جميعها على امتداد الأزمنة والأمكنة .
- إنها تقدم الحلول ومعها المؤيد لتنفيذها والابقاء عليها .
- إنها تتسع لكل أنواع النشاط الانساني ، وتربط بين المنطق والواقع ، والمادة والروح .
- إنها عقيدة استعلاء من أخص خصائصها أنها تبعث في روح المؤمن بها الاحساس بالعزة من غير كبر ، وروح الثقة من غير اغترار ، وشعور الاطمئنان من غير تواكل .

حقيقة أساسية من حقائق الوجود . وهي في ذاتها - كما يقول العلماء - كفيلة بتعديل القيم والموازين ، وتعديل الحكم والتقدير ، وتعديل المنهج والسلوك ، وتعديل الوسائل والأسباب .

ويكفي أن تستقر هذه العقيدة في قلب الانسان . لتقف به امام الدنيا كلها بمن فيها ، وما فيها : عزيزا ، كريما .

ومن يتأمل العقيدة الاسلامية ويتدبر ما جاءت به من مفاهيم تناولت معضلات الحياة . إن من يتأمل ذلك يحس بالاطمئنان ، ويتخلص من الحيرة التي تواجه كثيرا من المنكرين والماديين [١٢] .

والحقيقة التي أثبتتها السنون الحافلة بالأحداث والخطوب والمحن أن العقيدة الاسلامية هي العقيدة الشاملة ، والعقيدة المثلى للانسان والمجتمع ، رعاية للروح والجسد ، وعمل للدنيا والآخرة ، وجهاد في السلم والحرب ، وتنظيم للعلاقات والصلات الاجتماعية ، بين الأفراد والجماعات والأمم ، على خير ما يمكن أن يكون التنظيم .

فالعقيدة ضرورة لا غنى عنها للفرد والجماعة . ضرورة للفرد ليطمئن ويسعد وتطهر نفسه . وضرورة للمجتمع ليستقر ، ويتماسك ، ويرتفع ، وينهض . فالفرد بغير عقيدة لا يسكن له حال ، ولا يستقر له قرار . والمجتمع بغير عقيدة مجتمع غابة [١٣] .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وان ظهرت له بوارق الحضارة فهو مجتمع تعاسة وشقاء ، ليس له غايات واهداف إنسانية .

وقد كانت العقيدة الاسلامية إيذانا بمولد مجتمع يخالف المجتمعات التي جعلت أساس مجتمعاتها الجنس أو القبيلة أو السلالة أو الاقليم أو اللغة . بخلاف الاسلام الذي بنى مجتمعاته على العقيدة .

فالرومان ، والفرس ، واليونان ، والعرب ـ قبل الاسلام ـ بنوا مجتمعاتهم على الأسس السابقة . وما أن أهل الاسلام حتى عمل على هدم هذه الأسس وأحل محلها العقيدة ، وبين أن أصل البشر واحد ، ولا يمكن حجب هذه الحقيقة بالجنس أو النسب [١٤] .

قال تعالى : « **ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير** »[١٥] .

وقال تعالى : « **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة** »[١٦] .

وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الحقيقة بقوله : « الناس كلهم بنو آدم ، وآدم خلق من تراب ، ولا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أبيض ، ولا لأبيض على أحمر إلا بالتقوى »[١٧] .

فالعقيدة قوة لا تكافئها قوة ، في ضمان تماسك المجتمع ، واستقرار نظامه ، والتئام أسباب الراحة ، والطمأنينة فيه .

فالانسان يمتاز عن سائر الكائنات الحية ، بأن حركاته وتصرفاته الاختيارية يتولى قيادتها شيء لا يقع عليه سمعه ولا بصره ، ولا يوضع في يده ، ولا عنقه ، ولا يجري في دمه ، ولايسري في عضلاته وأعصابه . وإنما هو معنى اسمه : العقيدة . ومن هنا كان الانسان مقودا أبدا بفكرة صحيحة أو فاسدة . فإذا صلحت عقيدته صلح فيه كل شيء . وان فسدت فسد كل شيء[١٨] .

نعم إن الانسان يساق من باطنه لا من ظاهره ، وليست قوانين الجماعات ولا سلطان الحكومات بكافيين وحدهما لاقامة مدينة فاضلة تحترم فيها الحقوق ، وتؤدي الواجبات على وجهها الكامل .

فإن الذي يؤدي واجبه رهبة من السوط أو السجن أو العقوبة المالية ، لا يلبث أن يهمله متى اطمأن إلى أنه سيفلت من طائلة القانون . ومن الخطأ البين أن نظن أن في نشر العلوم والثقافات وحدها ضمانا للسلام والرضا ، وعوضا عن التربية والتهذيب الديني والخلقي . ذلك أن العلم سلاح ذو حدين : يصلح للهدم والتدمير ، كما يصلح للبناء والتعمير ، ولابد في حسن استخدامه من رقيب ، يوجهه لخير الانسانية ، وعمارة الأرض . لا الى نشر الشر والفساد . ذلكم الرقيب هو العقيدة والايمان[١٩] .

والعقيدة الاسلامية تعبر عن حاجات النفس الانسانية في مختلف ملكاتها ومظاهرها . ومن هنا تنبع حاجة البشر إلى الدين من طبيعة الانسان نفسه . فقد خلقه الله تعالى ، ومنحه طبيعة الكائن المتكيف . وعلى ذلك . فحاجة الانسانية إلى الدين نزعة فطرية وأصيلة ركبت فيه وفطر عليها [٢٠] .

والعقيدة هي أساس قيام المجتمع ، وأساس صلاحه أو فساده ، بل هي أساس بقائه واستمراره . لذا كانت حاجة الانسانية إلى الاسلام عقيدة وسلوكا . وذلك لأنه يصرف النفوس عن شهواتها ، ويعطف القلوب عن إرادتها [٢١] .

هذه العقيدة هي التي تحل لغز الوجود ، وتفسر للانسان سر الحياة . وتجيب عن اسئلته : من اين ؟ والى اين ؟ ولم ؟ .

هذه العقيدة ليست من مستحدثات الاسلام ، ولا مما ابتكره محمد صلى الله عليه وسلم . إنها العقيدة المصفاة ، التي بعث بها أنبياء الله جميعا ، ونزلت بها كتب السماء قاطبة ، قبل أن ينال منها التحريف والتبديل . إنها الحقائق الخالدة التي لا تتطور ، ولا تتغير ، عن الله وعن صلته بهذا العالم . وعن حقيقة هذه الحياة ، ودور الانسان فيها ، وعاقبته بعدها .

إنها الحقائق علمها آدم لبنيه ، وأعلنها نوح في قومه ، ودعا إليها هود ، وصالح عادا وثمودا ، ونادى بها ابراهيم واسماعيل واسحاق وغيرهم من رسل الله ، وأكدها موسى في توراته ، وداود في زبوره ، وعيسى في إنجيله[٢٢] .

جاءت عقيدة الاسلام فنقت فكرة التوحيد وكمال الألوهية ، مما شابها على مر العصور ، ونقت فكرة النبوة والرسالة مما عراها من سوء التصور . ونقت فكرة الجزاء الأخروي مما دخل عليها من أوهام الجاهلين ، وتحريف المغالين ، وانتحال المبطلين ، ودجل المشعوذين .

المراجع والهوامش

١ ـ سورة الروم . الآية رقم ٣٠ .
٢ ـ سورة الشمس . الآيات من رقم ٧ ـ ١٠
٣ ـ الدكتور يوسف القرضاوي الايمان والحياة ص ٧ ط مكتبة وهبة بالقاهرة .
٤ ـ رواه البخاري . كتاب الجنائز . باب إذا أسلم الصبي جـ٣ ص ٢١٩ ورواه الامام احمد في مسنده جـ٢ ص ٢٥٣ .
٥ ـ سورة الأعراف . الآية رقم ١٧٢ ، ١٧٣ .
٦ ـ ابن كثير تفسير القرآن العظيم جـ٢ ص ٢٦٤ .
٧ ـ الدكتور سامي عفيفي حجازي العلاقة بين العقيدة والأخلاق ص ٥٣ .
٨ ـ الدكتور محمد يوسف موسى الاسلام والحياة ص ١٠ .
٩ ـ انور الجندي منهج الاسلام في بناء العقيدة ص ٣٩ .
١٠ ـ عبدالله جمعة احمد العويشق الادب في خدمة الحياة والعقيدة ص ١٧ السعودية .
١١ ـ احمد السايح ـ عباس العقاد فيلسوفا ـ ص ١٦٤ ط القاهرة .
١٢ ـ المصدر السابق ص ١٦٦ .
١٣ ـ محمد امين حسن خصائص الدعوة الاسلامية ص ٢٥٧ . الاردن .
١٤ ـ المصدر السابق ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ .
١٥ ـ سورة الحجرات . الآية رقم ١٣ .
١٦ ـ سورة النساء . الآية رقم ١ .
١٧ ـ السيوطي ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور جـ٦ ص ٩٨ .
١٨ ـ الدكتور محمد عبدالله دراز الدين ص ٩٩ .
١٩ ـ المصدر السابق ص ٩٩ .
٢٠ ـ الدكتور سامي عفيفي حجازي العلاقة بين العقيدة والأخلاق ص ٥٨ .
٢١ ـ المصدر السابق ص ٦١ بتصرف .
٢٢ ـ الدكتور يوسف القرضاوي الايام والحياة ص ٢٤ ، ٢٥ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com